المشرق

الحماسة الدستورية

نظر الناقد الاب لويس شيخو اليسوعي

غنيٌّ عن البيان انَّ اجود الشعر ما اختمرت به مشاعر قائله. لانَّ الكلام اذا ما تأثرت منهُ النفس وانطبع في اعماق القلب تكاد الطبيعة تقذف به عفواً دون تصنُّع ولا تمثل البتَّة. وان سبكتهُ وعرضتهُ على محكّ الانتقاد وجدتهُ مصوغاً بابلغ المعاني مفرغاً في اجود قالب من اللفظ والتعبير

على انهُ بين ضروب المنظومات ليس ما يفضلُ في ذلك الشعر الحماسي لانهُ يعبّر عن اشرف ما في قلب الانسان من العواطف ويترجم عمَّا يكنهُ صدرهُ من الخواطر السنيَّة والهمم السامية التي تنكبهُ عن الدنايا وتسمو بهِ الى المعالي فيذكر ما لاسلافهِ من المفاخر ويتوق الى مماثلتهم بالمآثر ويناصب كل ما يحول دونهُ من العوائق في ادراك غايتهِ الجليلة حتى انهُ يضحي في سبيلها كل نفس ونفيس

وان تصفَّحتَ تواريخ الامم الغابرة ووقفت على آدابهم وجدتهم في الحماسيَّات اشعر منهم في سواها من فنون الشعر وهم يقدّمون تلك المنظومات الحماسيَّة على غيرها ويكرّرونها في مفاوضاتهم ويتغنَّون بها في اناشيدهم ويلقّنونها صغارهم حتى تصبح كقسم من حياتهم الاجتماعيَّة وعمرانهم. فهذه الالياذة لهوميروس بين اليونان ونشيد إنياذه لورجيليوس بين الرومان وشاهنامه للفردوسي بين الفرس فانها كلها منظومات حماسيَّة تذكّر كل قوم بمفاخرهِ وتبعث في قلوب ذويهِ شواعر الحميَّة والتحمُّس

ولم يخرج العرب عن هذا الحكم وان كانت منظوماتهم الحماسيَّة قصيرةً لا

تتجاوز ابيات القصائد . وقد عُني بعض الائمة بتأليف تلك الآثار او نُخب منها اودعوها في مجاميع عُرفت بالحماسات كحماسة تمّام التي استفاضت شهرتها وحماسة البحتري التي نحن اليوم ساعون بنشرها وحماسة البصريين وحماسة الخالديين وغير ذلك مما يشهد للعرب القدماء بالنخوة والاباء

ولمّا أُعلن في اواسط الصيف المنصرم بالحكومة الدستورية وفُكّت الاغلال التي كانت تنوء تحتها نفوس العثمانيين باستبداد السلطة الحاكمة سابقًا نشطت الارواح وانطلقت الالسن وجادت قرائح الشعراء بفرحها الطبيعية وقد نُظم من ذلك الوقت الى الآن من القصائد ما لو جُمع لأربى على كل المجاميع الحماسيّة السابقة . ولما كان لهذه الاقوال شأن عظيم في تاريخ الآداب العصرية رأينا ان نُعمل فيها النظر احيانًا ونستوقف ابصار الادباء لئلا يندثر ذكرها وتطمس معالمها

وكان اوّل ما شعر به العثمانيون يوم الاعلان بالدستور الجذل والاستبشار فسرّي عنهم همّهم وثلج بالبشرى صدرهم واستهل قلم الشعراء بوصف فرحهم . فقال الشاعر الوطنيّ جناب الامير شكيب ارسلان في مطلع قصيدة غرّاء :

ألا يا بني عثمانَ حبكمُ بُشرى لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى
وقد فزتمُ ذا اليوم بالغاية التي عليها رجالٌ قد قضوا دونكم قهرا
اطالت عليكم بغتةً شُرّد المُنى تُحقّق بعث الله مع عسرهِ اليُسرى
انت وحجابُ اليأس قد حال دونها كما يشتر الديّانُ من سكن القبرا
فمن غير وعدٍ بذّل انهُ حاكم لتضحي لكم رحمى وتندو لكم ذكرى
ويُعلَمَ انّ الله لا ربَّ غيرهُ وليس سواهُ يملك النفع والضرّا
اراد تلافي الشرق من عثراتهِ فأنقذ عليهِ من عنايتهِ سِترا

وانشد اخوه الاديب احمد عادل ارسلان معارضًا حالة البلاد بالبعث والنشور :

هذه الحياةُ فابن العُدمُ والعَدمُ وذا الضياء فابن الظُلم والظُلَمُ
لقد جلاها عن الاسلام ذو شُطَب ويفعلُ السيفُ ما لا يفعلُ القلمُ
يا بنيةً لم تزل في العسر نطلبها لا اليأسُ يُقعدنا عنها ولا السأمُ
قد بشّرتنا بها الانباء ناثلةً أمرَ الخليفة نِعم الآمرُ الحَكَمُ
احيا بها امّةً كادت عزائمها الى حضيضٍ من الإخلاد تنهدمُ

واجاد في وصف تقلّب الاحوال جناب الاديب يوسف حيدر :

مضى عصرٌ وذا عصرٌ جديدُ به صرنا نقيدُ ونستفيدُ

وقد ولى زمانُ البؤس عنّا واقبل نحونا زمن سعيدُ
بدأنا واغتطنا ثم عُدنا تبارك ربنا المبدي المعيدُ
كذاك الله يفعل في البرايا فيخفض ثم يرفع من يُريدُ
لحقًّا ان ذا عصرٌ حميدٌ وحقًّا انَّ هذا اليوم عيدُ

وكما تباشروا بالنجاة وهنّأ بعضهم بعضاً بنيل الاماني كذلك صرفوا نظرهم الى الجيش العثماني وضبّاطهِ البسلاء الذين بفضلهم حصل هذا الانقلاب العظيم فشكروهم واطرأوا حزمهم ودعوا لهم بالفوز والنصر . فقال جناب الشاعر المطبوع محيي الدين افندي الخياط :

بني الشرق هل إلّا الجدادُ التواضعُ سموكم وهل الّا الجهادُ الشوازبُ
بنيتم وأعليتم وشيّدتم فسُدتم ألا هكذا تُبنى العلى والمراتبُ
تلوا سحف الأنباء هل غير ما روت عن الجيش اروى الشرقَ والشرقَ ناشبُ
سرت نبأة من جانب الجيش قد دوت شمارتُها اعترّت لها والمعاربُ
مضت حقبةٌ يا شرقُ والقومُ تُرتعُ الى المآرب الغربي والكلُّ راقبُ
فرُحماك يا شرقُ لا تذلُ وأنتَ فقد فُزت بالدستور والدهر شاغبُ
ووالله ما ندري أأحلامُ نائمٍ أأنت بنا ام انت يا دهرُ لاعبُ

وقال الكاتب الاديب نجيب افندي مصوّر يحيّي الجنود البسلاء :

حياكمُ المولى واسعد دولةً وحمى هلالاً في سماها يسطعُ
يا قادة الافكار والارواح في قلم يدٌ وفي حسام يقطعُ
علّمتمونا كيف نحيا امّةً كادت تموت وصوتها لا يسمعُ
علّمتمونا الاتحاد ولم نكن نرضى به بل في سواه نطمعُ
وأريتمونا انَّ فيكمُ مجدنا والى حماكم في الشدائد نفزعُ
يا جُند عثمانَ السلامُ عليكمُ تلقد دوت بكمُ الجهاتُ الاربعُ

وقال الشاعر المجيد شبلي بك ملّاط يطنب في مديحهم ويخصُّ منهم زعماءهم وانصار تركيا الفتاة من ابيات :

وشت جنودُ الترك فاهتزّت لها الدنيا وضجّ المسلمون وكبّروا
وتعاهدوا ان ينقذوا الوطن الذي بالجور منهُ الجوُّ اشمسُ اغبرُ
فتقدّموا والله ناصرهم وقد فازوا وكان النارُ ان يتأخّروا
فلتحيَ تركيا الفتاةُ وردّدوا عاش ابنُ تركيا وعاش العسكرُ

حملتْ الى الترك الحياةَ وأنتم لولا الثباتُ وقومُها لم ينشروا
خرجوا من الاكفان وانتفضوا كما يتنفّضُ العبدُ الذي يتحرّرُ

وقال جناب الشاعر المفلق عبد الله افندي البستاني في الموضوع:

يا رعى اللهُ مجدَ كلّ همامٍ شاد بالسيف المجد للعسكريّهْ
هل يوازي الآسادَ غيرُ بازي مَن حمى حوزة العُلى بالحميّهْ
لا يباريهِ في الصراسة الّا صادقُ البأس أثورُ الاليّهْ
بنيا الاحرار في كلّ قطرٍ شرقًا لا يزولُ بالمترفيّهْ
حاربا الفرقَ في الوغى وبرًا مثلَ سهمَين انفذا في الرميّهْ
لم يُثنيا على المقاصد لكن ربطا الخائفَ القلوب الحريّهْ
واستباحا مستأسِدَين بيثًا كالدواهي بالغيرة العلويّهْ
فاستجار الحمودُ طرًا وذلّوا حرَّ ثغورَ عاتي الحريّهْ . . .
اي عبدٍ يُبلي بوجهٍ كعبدٍ كاد يُفني مابيعَ عا فصيّهْ
أيّها الناهضون للحقّ بثّوا بثّي المُرهفاتِ شكرَ العريّهْ
لا ترالون بالصوارم سورًا يدفعُ الهولَ عن بني سوريّهْ

واكثر الشعراء في قصائدهم يعودون بالنظر الى الاحوال السابقة ويعدّدون ما أمّ بالاوطان من النكبات وما دهم اهاليها من الشدائد لاستبداد المُتال وترفّع ذوي الامر فيعارضون بتلك الاحوال السقيمة ما اصابهُ اليوم بتغيّر الامور عاقدين الرجاء بانتظام الاحكام. فمَن احسن في هذا الباب جناب الدكتور نقولا فيّاض حيث قال:

يا بني عثمانَ انم انشتْ اصبحت موضوع اعجاب الامَمْ
سيدُ الدنيا تاريخًا لكم طبّع المجدَ به منذُ القِدَمْ
في حمى جيشٍ عزيزٍ باسلٍ وامام السنّة كالنجم العلَمْ
ضرب الظلمَ بسيفٍ قاطعٍ شقّ منهُ النورُ اكبادَ الظلَمْ

*

صيحَ بالترك فكانت صيحةً أيقظت من ضجعة الموتِ الهممْ
وسرى للعرش منها هزّةٌ نفضتْ يلدزَ من ذاك الصنَمْ
فترا الشرق انقلابٌ مدهشٌ لو غنّيناهُ في الاحلام لم . . .
ورأينا دولة الماضي وقد كتب الموتُ عليها لا رحم

وقال الشاعر المجيد نقولا افندي رزق الله:

يا ايها الناس حيّوا ذلك العلما وسبّحوا مانح الحرّية الأسما
وقبّلوا البندقيّات التي فضلت افلامنا بعد ما كانت لها خدما
وظاهروا عصبة الاحرار انهم اتوا بما اعجز الابطال والهمما
هيا افتحوا يا بني عثمان اعينكم تدفّق النورُ حتّى يبدّد الظلما
تزيّنوا بجديد من ثيابكمُ او فاخلعوا ذلك الثوب الذي قدما . .
وادعوا لمن بعث الدستور من جدث بكت عليهِ عيون العالمين دما
فقد حرمناهُ ظلماً وانقضى زمنٌ عليهِ حتّى حسبناهُ غدا عدما
واليوم جرّد سيف الحقّ صاحبهُ وهاجم الظلمَ حتّى فرّ منهزما
تعانق الشيخُ والقسيسُ وابتهجا من بعد ما افترقا ضدّين واختصما
تعانقا في حمى الدستور واتّحدا ورفرفت راية التوحيد فوقهما . . .

وبمثلها اجاد الاديب طانيوس افندي عبده في مخمسه حيث قال .

ذلك اليوم يوم لم نرَ قبلا وسمعنا بمثلهِ استكبارا
يوم بات السلام فينا نهارا يوم كنّا نرى الجمع كثرى
لا بخمر بل من حميا الحميّه
قد رأينا الاتراك اهل الحماسه أدهشوا الارض بالدما والبساسه
واستطالوا الى مقام الرئاسه فقضوا بالربا اطالوا القاسه
دون ان يسفكوا دماء زكيّه
ورأينا بيروت ترقص تيها وبها يعمرون فيها
بعد ان كانت النجاة فيها لملذّي اصبحت كأنّ ذوجا
اخوة بالسلام والمدنيّه
ورأينا القلوب قبل الايادي تركت للسلام والاتحاد
فغدا الآن كلّ حرّ ينادي يا لقومي نفسي فداء بلادي
فلتكن واحدا جموع الرعيّه
يا بني قومنا اذا ما ظفرتم فبذاك الجيش المظفّر فزتم
وبفضل الاحرار ها قد سلمتم فاذكروا الفضل واعجبوا ما حييتم
بجلال الحميّة التركيّه

ومن الشعراء من ذكر اعمال الاستبداد التي تركت في النفوس اسوأ عاقبة فرثى بعضهم الاحرارَ الذين ذهبوا ضحيّة مروّتهم وظلم الحكّام فقدوا بدمائهم ارواح اخلاقهم . قال صاحب العزّة سعيد بك شقير :

احرارُ تركيّة انهضتمُ وطنًا كم سبابٌ شأوًا دونهُ السحبُ

فكم صبرتم على ضيم ألمَّ بكم وما ثنى عزمكم ضيمٌ ولا وصبُ
وكم سعيتم وكان الموتُ يحصدكم فما رجعتم وما خارت لكم ركبُ
ما مات من بطلٍ الّا انبرى بطلٌ للعيش مفتقرٌ في الموت مرتغبُ
في الدردنيل وفي البوسفور أعظمكم منها بقايا عليها المجدُ مكتئبُ
علّمتم الشرق والاقطار قاطبةً انَّ العظيم لديه تصغرُ النُّوَبُ
ولا تنالُ المنى والمرءُ مُقتعدٌ في بيته حزعًا انَّ المنى تعبُ
ماتوا فعشنا واحيوا بعدهم وطنًا فكلُّ ما فينا فيه بعض ما وهبوا
ولم تَمُتْ روحهم بل دبَّ ثائرُها في من أتى بعدهم كالنار تلتهبُ

وكذا استدرّ العبرات على ضريح المرتى في سبيل الدستور جناب اسعد افندي ماجم:

اذكروهم في كلّ سمعٍ وبادٍ انهم حرّروا رقابَ العبادِ
بعد ما عاندوا واي عنادٍ اذهكروا كلّ حادم للبلادِ
من ثرى غارٍ الى البستان
وقفي فوقهم ايا روح مدّتْ انتِ مَنْ في هذا السبيل تضحّتْ
عن عناها لولا الرّدى ما تنحّتْ تلك اعمالُها وها اليومَ صحّتْ
بعد عشرين حجّةً وثماني
يا شهيدًا لم يبغِ غير الوفاء وطبيبًا ارداهُ وصفُ الدواء
لمريضٍ ما رام بل الشفاء حولك الآن عسكرُ الشهداء
ولارواحكم تليقُ التهاني
واذكروا ذلك الامير النظيما اي صاح الدين الشريفَ الحكيما
امهُ غادر التنى والنعيما حيثما كان سيّدًا محدوما
وتلاشى في خدمة الاوطان

ومنهم من عدّد مساوئ الجواسيس وقبّح اعمالهم الاثيمة. قال جناب عبد الله افندي البستاني:

بؤسًا لايامٍ علينا سوّدت دُهمَ الليالي والنفوسُ جوارِ
ايامَ ابناء المهانة عُزّزوا وبنو المهانة خيّموا بصغارِ
فغدا البيونُ على الضمائر غرّةً غدوَ الجوادِ بجبهةِ المضمارِ
واستأنسوا في ظلّ اذيال الدجى فاستوحشوا بطالع الاقمارِ
واستمرأوا لذّاتهم بأذاتهم وتنعّموا بتمرّم الاعمارِ
يتجسّسون من الخفايا طرفةً كانت لأنفاس النسيم تباري

ولكم تواروا ان يمسّوا بالأذى كلَّ امرئٍ بشهاهُ زَنْدٌ وارِ
يتجرّمون على البرئ جنايةً مع انّهُ مما جنوهُ عارِ
فكأنَّ من اخلاقهم صلد الصفا ونفوسهم فُطرت من الديثارِ

وغيرهم رشقوا بألسنة حداد جنايات المرتشين من العُمّال . فمن ذلك قول الشاعر الفكه اسعد افندي رستم يصف دخولهُ بيروت بعد عودته من اميركة :

ودخلتُ بيروت الحبيبةَ تائقاً للأهل بعد تشوّقٍ وتحسّر
فأتى اليَّ مفتّشاً مأمورها قال افتح الصندوقَ قلتُ لهُ اصبر
فمددتهُ ووضعتُ في يدهِ خمسديناً فقال الشكرُ يا «حضرتلي»
لفّتْ حصاتُ عليهِ جوّاً وكم لفّتْ ما أعطي سذل الاصفر
هذه البلاد فتيرةٌ فأعدّ ما فيها الهوا والماء والحسن النظري
ارضٌ على فقرائها ساد لبز لا يستريحُ ما يرى الرجل الثري
ما دامت الحكّامُ فيها ترتشي يتحوّط الخاطي ولا يتحوّط البري
لا شمل للساعي الجدّ هنا ولا ربحٌ هناك للبائع او مشتري
الجيشُ عربانٌ وحاجب حوزهُ خالٍ ومن سنتين لم يقبض «كري»
وطنٌ تمرّسَ اهلهُ وسيبندي بعد القليل وليس فيهِ «دوري»
لا بدع ان سمّوه سقط رأسنا فرؤوسنا سقطت به بتقهقر
لكنَّ هذي الحال زالت وانجت وتبدّلت حالاً واني تحسّبي

وتفكّه آخرون بمراقبي الجمارك والمطبوعات . فقال شيخ الشعراء الصريبي شرقي بك :

لما رقيبٌ كان ما أنقلهُ الحمدُ لله الذي رحّلهُ
لو ابتلى اللهُ بهِ عاشقاً مات بهِ لا بالهوى والولهْ
لو دام الضعف ودامت لهُ لم تنجُ منهُ الصحُفُ المنزلهْ
اذا رأى الباطلَ غالى بهِ وان بدا الحقُّ لهُ أبطلهْ
لو خال «باسم الله» في مصحفٍ تُنضب «تحيّاً» عما البسلهْ
وعزّة الله بلا «عزّتي» لا تنفعُ القاري ولا خردلهْ
جرائدُ الترك على عهدها كانت بلا شأنٍ ولا منزلهْ
ان تذكر الخنجر لفظاً تُصِبْ من شدّة الذعر بهِ مقتلهْ
وان تصفْ قنبلةً لم تَنَمْ من هول ذكرى حادثِ القنبلهْ

ومثلهُ في حسنهِ قول جناب عبد الله افندي البستاني في حرّية اليراع :

سرّ الضمير ببادئ الافكار فأنالها ما جلّ من اسرار
قد كنتُ ذا وله زمانَ تلثتُها وردتْ حياضَ حمامها بديار
يا طالما شاء اليراعُ بكاءها فارتاع حابي دمعهِ المدرار
ولأشدّ ما استوقدتُ صدري بعدها بأبي يذيبُ جوامدَ الاحجار
كم عذتُ بالباري فيخالوا انّني كفٌّ بمن هو اليراعة بارِ
لم اذكر الشعرى فخافة انّني في الناس اعط احرف الاشعار
أيدين لي حرّ الكلام ومقولي عبدُ الرقيب يشدّهُ بإسار
ان قلتُ وا « حرّيا » تزعم انني اسعرتُ نار « الحرب » بالنظار
ومن الخطوب الدُّهم اني قائلٌ نلتُ « المراد » وبلغتُ الاوطار
ان تُنشد ما وافت النفس اهدني سل « الرشاد » ولا يضلّك عثاري
او هاتفٌ ناديتُ باذحة الذرى المجد « يا وادي » رفيع ذرا
بكم كتاب كان طُعم بصيرتي قد اعترتهُ اضاعة طعم الاثر
واذا انحدرتُ الى الثرى خاطري حارت عليّ التي بيدار
لكن بعض أسفي وقلبي من أذى شعبٍ قد اضاعوا على الاحرار

وزاد على فكاهة الشعراء السابقين اصحاب الشعر العامي المعروفين بالقوّالة فنظموا في الاحوال الجديدة القرّاديات والمغنّى ومنظومات شتّى نختار منها ما رأيناهُ جديرًا بالذكر لحسن ذوقهِ وجودة سبكهِ وتفنن قائليهِ . فمن ذلك مخمّس للقوّال الشهير خليل سليمان فرح الدفّالي الشحروري (اطلب المشرق ٥ : ٩٥٨ و ١٠ : ٩٥٥) دعاهُ « صوت الحرّيّة » فقال في جملته :

صوت اليرى من قاع موسكو العميق لمّا وصل فه من أقوم طريق
المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الحديد على العتيق

المجد ظلّل حزب تركيا الفتاة والروح لبّتها بعد ذاك الهيئات
والرب اوعيها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينه باتسه
والظلم راح بخفقها خفيق
من بعد ما كانت حزينه باتسه ومظلله بقيود ضمن المحبسه
طلت علينا من مناستر لابسه ثوبًا ظهر من طيه نور ونار
وحامله منشور دستور الوثيق
ثوبًا ظهر من طيه نور ونار وحامله منشور ابهى من النهار
من فوق جبال مقدونيا لما انتشر سلونيك احرارها قالوا السلام
على فتاة فيها النجاة من كل ضيق

سلونيك احرارها قالوا السلام على فتاة منها انلد عصر السلام
والنور في سطنبول ساد على الظلام والرب على البوسفور طلّ من السما
يسمع ندا من كان في قاهر غريق . . .

حينئذٍ حنّ الملكون من سماه والتفت في كل من يبغي رضاه
وسار الطيبي يقرّ بوجود الاله والبري في عطف خالقه اتصل
والظالم اصبح مسجرو للحريق

والبري في عطف خالقه اتصل ياظالم بالانصاف والحق اعتدل
في قوة الـ ـعظيم الشأن عال

وحاراً في لطف قوله رضيعة الثوار يوس اسعدي القرآن فنظم القرآدية الآتية :

كلمة الحكومة الى الشعب السوري

ندى العسكر السلطان كل يا اخوان بناه شرفي السعادة
بطريق الحرية

كلامهم سوى بالحقوق وصار الظلم بالاجازوق والمتانين اصبح مخنوق
وامواله المالسوسيه

صاروا الجرائد بس السود ساءة رحمه ظلام قرود اسلام ونصارى ويهود
صاروا ناطق سوريه

صاروا الخوان واحباب من خلف به فيشاب وما بقي احد يهاب
من حاكموه السريه

يا ما يتموا اطفال ويا ما كثروا الارامل ويا ما خلوا اموال
ودانوا حقوق الرعيه

مادام كل الاولاد جالك تسعين يا جراد ليخلف ملك البلاد
وهك صارت سوريه

أما لهب دور النار نشبها نباري والنور انه ينصر العسكر
وتمها كل الجنديه

تمها تركيا الفتاة لولاها كنا امرات وكانت كل المطبوعات
بالزوايا مخفيه . . .

يا عالم متنا وعشنا ورب السما انعشنا ما عاد حدا يدفشنا
بالقبضه البوسفوريه

ما عدنا نخشى الظلام وصرنا نطلق الاقلام ما من مراقب يتحكم
وبغيم الجرنلجيه

كان مزيّر « للاحوال » ومقطّع « للسان الحال » وكان مؤخر « للاقبال »
« والنشره الاسبوعيه »

رنّي بقلب « الشمرات » « والبشير » كل الحسرات « بيروت » تبكي بالانات
وتقول يا حسره عليّه

من ريحه انطفى « المصباح » وانتنت كل الارياح « والنار » عانوره ناح
ناره صارت مطفيه

من جوره عا « المحبه » رنّى بقلبها غبّه زالت عن قلبها الكربه
وحمدت رب البريّه

ولاحد مهاجري اميركة قصيد في هذا المعنى وهو القوّال جرجس افندي عبد الله معارف :

الاحرار عمّال يرحموا عابلادنا كل منهم كان بالغربه اسير
كانوا اسارى اذ اقلامهم من هولها شابوا الطغاة بالسرير
لا تظن الشعب خامل بالنيام مثلما بفكرك وقايم للشخير
في النادي كل شيء بتوحد وما احد نال المعالي بالتجمير
عندك بابنان كل شهم بتفتخر فيهِ البلاد واليهِ بالاصبع تشير
ظام الحكومه غصب منهُ بيجبره ان يكون ذليل وحيان وحقير
حيث لو تلاقظ بكلمه واحده بيسركلوه وبينشروا عقه نشير
كام مرّه فتّشوا شحن البيوت عشرين مرّه يفتّشوا مبوم القصير
عاشان ورقه او جريده عادته للكبير بياقطوا ثم الصغير
ويرفعوا قرارات عليها يسادقوا القاضي والقائمقام ثم المدير
ذاك الزمان الحمد لله قد مضى والظلم مات وعمره اصبح دثير

ومما نظمهُ في جونية ارتجالًا القوّال ناصيف مخايل مراد العرموني قولهُ بعد مطالع القصيدة :

يا اسلام وسبحه اسمعوا لي . هذا القضيه اهل الارض بطول وعرض
يقولوا تحيا الحريّه

(الردّة) يا اهالي كسروان صيحوا معي بفرد لسان فليحيَ آل شمعان
ركن الدوله العليه

اهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحريّه فليحيا نيازي وانور
والجيوش الشاهانيه

اهل الارض بكاملها من اولها لآخرها تركيا الله يسترها
بجاه رب البريه

بطل روح الاستبداد نادوها بكل البلاد زمان الماضي ما بينعاد
الظلم نجومه مختفيه

مات الظلم وتلاشى الناس غنت بحماشا الله يديم انور باشا
ابو السعد القويه

ما شا الله مدينة بيروت ونصارها ومسلمين شبا مكتف مسوط وكل البشر فرحانين
فيها ما عاد حدا يموت لا بقواس ولا بسكين ولا بسجر فيها طرح صوت
السلطا والاشرفيه

وما اكتفى شعراؤنا بتزييف ما مضى وكشف القناع عن سيئات الاشرار بل استبشروا في وصف الهناء الحاضر والامان الشامل واطلقوا العنان للآمال الطيبة في الخصام الداء واستقامة العوج فمدحوا العدل وعظّموا الاخاء وأثنوا على المساواة فكادوا يسقوننا كؤس السعادة نشل بسلافة الاجيال الذهبية. قال صاحب العزّة سعيد بك شقير يخاطب الجند العثماني:

اليوم نفرح احرارًا بفضلكمُ تندو وغبي ولا همٌ ولا نصبُ
قد أطلق الحرُّ من سجن أعين به وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم ولا جرائد تأتينا فنرتعب
وان مشينا فلا جاسوس يتبعنا وان جلسنا فلا جاسوس يرتقبُ
ننامُ في الليل لا الاحلام تزعجنا ونهبشُ الصبح لا خوفٌ ولا رهبُ
كم بين حالٍ انتقلنا كلها طربٌ وبين حالٍ عدمنا كلها رهبُ

وقال اسعد افندي رستم:

يا معشر القرّاء سرّوا وافرحوا بشرى تطيبُ بها قلوب العشر
من ذا يصدّق انّنا في غفلةٍ كبرى هنا من بعد ويلٍ اكبر
فالعدل قد شمل الجميع بظلّهِ والناسُ بين مؤمّلٍ ومكبّر
لمّا رأى الاحرارُ انّ الظلم لم يعمل في الورى فعل الهواء الاصفر
هذا تضيعُ حقوقهُ ويُسامُ ذا خسفًا وذا يقضي بطعنة خنجر
منحوا الرعايا سرّهم فتخلّصوا من كل مأمورٍ مجورٍ ويفتري
والخائنون تشتّتوا فتطهّرت اوطاننا من شرّ ذاك العنصر
ولقد غدَت اولياء امورنا حتى لينذر ان يقولوا «.....»
وخلاصة الاقوال يا قرّاءنا حرّ السياسة راق بعد تكدّر

ولقد اقيمُ اليوم مجلس امّـةٍ يقضي ويمضي عن هدًى وتبصّرِ
وعلى التظلّم صار يجسر كلُّ من قبلًا عليه مخافةً لم يجسرِ

حتى ختمها بقوله :

تحيا المساواة التي لا فرق ما بين ابنِ مرسقَ عندها والسنكري

وهذه الشواعر يجاهر بها العثمانيّون على اختلاف ولاياتهم وتباين نزعاتهم نسمعها من الحدباء والزوراء كما يتغنّى بها اهل الشهباء والفيحاء . قال السيّد عبد القادر العبّاديّ البغداديّ :

تولّى زمانٌ كنّا فيه نُحقَرُ واقبل عصرٌ صرنا فيه نوقّرُ
ولاحت بافق الحدّ شمس عدالة جا قد غدا وجهُ السيطرِ يزهرِ
ألا انّ عصرًا جاء بالدلل مشرقًا هو العصرُ لا عصرٌ من الظلم اغبرُ
رعى الله عصرًا فيه لحرّ راحةٌ يقولُ فلا يمشي الامامَ ويظهرُ
يبيتُ قريرَ العين غير مفكّرٍ بما كان قبل اليوم فيه مفكّرُ

وقال الشيخ معروف افندي الرصافيّ :

أكرمْ بعصرٍ حيانا بالمساواةِ وخصّنا بالهناني والمسرّاتِ
عصرٌ به المرءُ مأمونٌ ومحترمٌ وكان يرمى بانواعِ الضلالاتِ
عصرٌ به العدل وافانا بنشرتهِ والدامُ ولّى باصحاب الدناءاتِ
عصرٌ به قد تآخينا نلوس ترى بعد الاخاء طريقًا للمداواتِ
عصرٌ به قد امنّا كلّ عاتلة من عصبة الشرّ ابناء السفاهاتِ
اللهُ اكبرُ هذا الدينُ فابتكروا خير الدعاء الى ربّ البريّاتِ

وقال في دمشق الاديب محمّد شاكر ياسين :

قُلْ ولا تخشَ ملامًا او ملَلْ انّ نجمَ الحيفِ والخوفِ أفَلْ

الى ان قال :

فتهنّأ ايّها الشرقيّ وقُلْ بلغ الشرقيّ غايات الأملْ
بلغ الشرقيّ ما يأملهُ وانالَ العلياء بالجدّ وصَلْ
ايها الشرقيّ قد بُلّغتَ ما كنتَ ترجوهُ فهل ثَمّ خلَلْ
قل لمن عاب الذي بُلّغتهُ انّ طيب الورد مؤذٍ بالجُعَلْ
فانبذ البغضاء والحقد ودَعْ كلّ ما فيه فسادٌ وزَغَلْ
كنتَ لا تملك امرًا ثم قد صرتَ ذا امرٍ فلا تخشَ الزلَلْ
صرتَ حرًّا ضمنَ قانونٍ به كلّ ما يأملهُ الشرقيّ حصَلْ

كلّ من في الشرق اخوانٌ فلا فرقَ بين الشّاذلي من كلّ الشّذل
واذا رمت افتخارًا فافتخر بالذي تأتيه من خير العمل
قُلْ ان كان ظلومًا غاشمًا اعتدلْ او فاعتزلْ فالعدلُ حلّ

ولم يشاؤوا ان تنحصر تلك النعم في الرجال وحدهم بل دافعوا عن حقوق المرأة ايضًا وطالبوا تهذيبها وتحريرها. فقال حضرة الشاعر خليل افندي بطرس حلوه :

أطلقوا روحها أنيروا نُهاها قد كفاكم إذلالُها وكفاها
هي ليست من دونكم ان يكُ م الله كما قيل منكم قد براها
ان تكونوا من الثرى قد نشأتم فلقد كان نشأكم مشاها
أجهلتم انّ الاطالع بالاخلاص و تحمي قلوبكم في حماها
فافتحوا عقلها ألا حرروها نحن نحمي اذا ثوت سماها
هل تسيغ الايام كبتَ على فتد بي وكبت غيركم بياها
هي مفتاح دنّنا وعلانا فارفعوها وأكرموا مثواها
ليس احلى من قلب امرأة فضل تهدي في طريقنا هداها

اكثرهم عرفوا انّ هذا التغيير لا يأتي بنتيجة الّا اذا ثبت على اصول راهنة ودعائم وطيدة لا سيما الاتحاد. قال جناب أيوب افندي ثابت يامن الانقسام :

قاتل الله كلّ من رام شرًّا باخيه وعاش بين الوطيئة
قسمتنا يدُ المفاسد دهرًا فانقسمنا فكان ذلك ليسه
يا قومي ان تُقسموا لا فلاحٌ انما تفلحون بالمقسمة
ان ضحكنا فلتضحكنّ كثيرًا او بكينا فموا لباشر سوءه

وبيّن الاديب بشير الفوردي في التقدّم التونسي فضل الاتحاد بقوله :

ليس يُرجى لامّة من فلاح غير ان هبّ كلّهم فردّ هبّه
شمراء الزمان كم نبّهتنا بنداها وكم خطيب بخطبه
انّ كسر العصا سهلٌ ولكن كسرة بعشر بمثام صعبه
نحن ان ظلّ جمعُنا في شتات ليس يُرجى لحالنا من نائبه
من رجى بالدواء وهو عليلٌ كيف تقوى على شفاء الأطبّه

وكذا يحرّض جناب الشاعر نعوم بك شقير على التعاضد :

بني امّي اسودة البرّ هبّوا قوتُ اليوم او نحيا سوية
حذار فتنةً نسي الينا تركناها مطامعُ اشبه
حرامٌ أن تُراقَ لنا دماءٌ بزكاةٌ وارواحٌ بريه
ليعضدَ بعضُنا بعضًا ونبني امانينا على أسس قويه

ففي ضمّ القلوب الخيرُ بادٍ وفي تفريقها شرُّ البليّة
وقيتم كلَّ نازلةٍ وكربٍ وأعلى شأنكم ربُّ البريّة

هذه بعض الشذور الذهبيّة والاقوال الدريّة (١ نظمناها على شبه عقد يزدان به جيد الآداب العصريّة ولعمري انّها لجديرة بالاسم الذي حلّيناها به فدعوناها « بالحماسة الدستوريّة » اذ كلها ترمي الى غرض واحد اي الدستور الذي حظي به العثمانيّون فحسبوهُ كنهاية عالم عتيق كما زندهُ وتضعضع ركنهُ وكدفتتح عهد جديد اشرقت بهجتهُ وتلألأت غرّتهُ فكأني بهم يردّدون جميعاً بلسان واحد قول نعوم بك شقير :

لتهجر بيضُنا الأغمادَ حتى نُقيرَّ العدل والدستور فينا
من الدستور لا نرضى بديلاً ولو طُبحت لنا الأمانا طبخنا

فكلُّ هذه الاقوال وغيرها ايضاً مما يطول ذكرهُ تعرب عن رعبة الامة في خلع نير العبوديّة وعن ارتياحها الى الامن والسلام والوفاق والانضمام . وهي عواطف شريفة لا ينبذها الّا الذين يودّون الضغط على النفوس ويريدون ترويج نيّاتهم السيئة . وغاياتهم الشخصيّة

ولو كان الذين قرضوا القريض ونظموا القصائد اكتفوا بان يترجموا عن هذه العواطف الشريفة لأثنى عليهم كلّ عاقل وشكر احساساتهم اللطيفة واطنب على رغبتهم في الخير العامّ ونقل اقوالهم المسجدّية في كل ناد ورواها على رؤوس الاشهاد وقد يسرّنا انّ بعض هؤلاء الناظمين تجاوزوا الحدود ومالوا الى التطرّف

فمن تلك المبالغات التي لا يرضى بها العقل ويستقبحها شرع الامم المتمدّنة والهمجيّة ما نبذ بعضهم لبدا الرئاسة . لا بأس ان تكون الرئاسة مقيّدة لئلّا تستبدّ ولكن اين هذا من مبدأ اهل الفوضى الذين لا يرضون برئيس ولا سلطان فيعرّضون العمران البشري لكل الآفات وضروب النكبات . وعليه لا يسعنا المصادقة على ما قالهُ في اميركة جرجس افندي عبد الله معارف في جوابه على الاديب اسعد افندي جرجس مارون وهو يدّعي انهُ من المتأخرين لمدافعته عن الرئاسة :

دافعت يا ابن الذكا بدون اقتدار عن الرياسة مع انّا اصل الخراب
بها حكيت وقلت عندي بتعذر حيلك من الجيل العتيق بتنحسب

(١ لا جرم انهُ فاتنا شيء كثير من القصائد الدستوريّة التي لم تبلغ الى يدنا او بلغتنا بعد كتابة هذا الفصل . ولعلّنا نعود اليها ونجمع منها نبذة ثانية اذا توفّرت لدينا المادّة

ثم يعدّد مساوئ البعض حاملاً على المجموع ذنب الافراد فيقول سامحهُ الله :

جبـّة السوداء ودقون الكبار خربوا الجبل حتى نتن فيه الغراب
ورجال الحكومه كلهم كانوا غبر ما بهم غير بطنهم مثل الدباب

فيا لله أهكذا يُعرَف فضل مئين من الذوات من اساقفة وكهنة وشيوخ الذين سعوا في اجيال الظلم في الدفاع عن حقوق المظلومين ومساعدة البائسين . وهل نال اليوم الشعبُ كل رغائبه لتشدّق بعض اهل الثورة كما قال :

والجرائد اظهرت افكارها بتقدّمهم صار جرنال الصغير ! !
وانتقد في كلّ لمحه قاله ما بنا بهمّه مليك ولا وزير

واساء بعض الشعراء ايضاً اذ نادوا بالمساواة ليس فقط في الحقوق والعدل ولكن بالرتب ايضاً وتباين الطبقات (راجع مقالتنا في المساواة في المشرق ١١ : ٨٦٣) فلا يرضون لا بسيّد ولا امير ولا بعالم ولا غنيّ . وقد احسن جناب الاديب الحلبيّ ويكتور خياط اذ افحمهم بقوله :

عظّم الخطبُ واعترانا البلاء ودهتنا المصيبةُ الدهماء
وُلِبِسنا من الزمان بقوم م بما يفعلونهُ اغبياء
زعموا انّ في المساوي الغنى فبنوا كيفما احبّوا وشادوا
واستباحوا المحرّمات ونادوا تلك حرّيةٌ وهذا اخاء
كلّنا اليوم سيّدٌ وامير كلّنا اليوم في الدنى أكفّاء
ليس فينا علّامةٌ بتباهى بعلوم بل كلّنا علماء

أيها الناسُ قد ضللتم سبيلاً وخبطتم كأنّكم عشواء
ما التساوي ان تستوي ادنياءٌ ومراءٌ او ظلمةٌ وضياء
ما التساوي ان يساوى الجبالُ والتلُّ م وتلو الماصبَ السفهاء
واذا استشر البناتُ بقطرٍ قلّ تاكُ البلادِ النقباء
فدعوا الفصل للحكيم وقول م الحقّ للعاقلين يا جهلاء
ليس من ينكر المساواة حكماً أنّا نحن في الحقوق سواء

ومنهم من اطرأوا حرّية المطابع الى حدّ فاحش فجعلوا الطعن بالاشخاص ديناً وشتم الكرام ديدناً . وعليه قد اصاب الاديب جرجي افندي نخله سعد في تنديده بالصحافة السيئة بقوله :

كثرت عندنا الجرائد حتى اوشكت ان تُناهز العشرينا
وكثيرٌ يسعى لنيل امتيازٍ فكأنّ الوجود لا يكفينا . . .

ازعجوا القارئين في كل يوم بمواضيع ملّها القارئونا
ثم ظنّوا حرّية القول ان لم يتّخذوا الطعن والوقيعة دينا
ما ارى في جرائد العصر الّا سقطاتٍ تُخَطُّ حينًا فحينا
نغمٌ واحدٌ يعادُ علينا قد شجينا من سمعه وروينا
ليت شعري كم يبحثون بامرٍ ليس يدرون غثّهُ والسمينا
أيهم يعلم السياسة والفقه وعلم الجغرافيا والفنونا . . .
ليس يكفي ان تدرس الصرف لم والنحو وتدري التحريك والتسكينا
انّ فنّ التحرير اصعبُ ممّا ظنّ بعضٌ وقد اساء الظنونا

واسوأ من هؤلاء اولئك الذين توسّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماهُ وبخسوا حقوق ممثليه. فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور واسباب التأخر والدينُ كما لا يخفى بأسٍ بالاخاء والتحاب (راجع مقالتنا عن الاخاء في المشرق ١١ : ٩٣٢). وذاك يزري بالخطباء ويتّهمهم حتى انهُ آثار عليه خواطر الجموع. وغيره يدّعي انّ الدين لا دخل لهُ في العمران وانهُ من المسائل العرضيّة:

حلّ قيدي وشيخكم في حبالي واحكمي لي في المسائل الجوهريّة

وان ذكر الذين حُكموا عليهم بالظلم في وقت الاستبداد تعجّب انّهم لم يُكرّموا كالمسيح مثل السيّد المسيح (زه زه):

مات عيسى فأبقت الموتُ والموتُ مات وماتوا ضحيّة !!!

وبجعل آخر كلّ الاديان متساويةً كلها صحيحة والله موجدها على اختلافها:

أوَلا تدري انّ ربّك يُعبَدُ بجميع الاديان اذ يتسجّدُ
ذاك يدعو عيسى وهذا محمّدٌ انّ فيه في التباين مقصدُ
فاشكروا الله موجد الاديانِ

فعلى هذا القول يكون الله موجد دين الهنود والصين والاصنام الرجسة وكل الطواغيت والله تعالى عمّا يقولهُ الكافرون مقصدٌ بتباين هذه الاديان. فليت شعري أيوجد كفر اعظم من هذا. فنشدكم الله ايها الشعراء صونوا قوافيكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبةً جاد بها عليكم المنّان. بل اشحذوها لمدح كل جميل. وترّهوها عن كل قبيح ذليل. فكل ما يشين الاقلام سوف يجد الانسان تبعتهُ في آخر الايام. كما قيل:

فارغب لكفيك ان تحظ بناها خيرًا تخلّفهُ بدار غرورِ
فجميعُ فعل المرء يلقاهُ غدًا عند التقاء كتابه المنشورِ